# كيف نهتدي إلى خصائص الحروف العربية ومعانيها ؟

**الحلقة الثالثة :**

## أولا : حول أبعاد هذه المشكلة :

لقد عرضنا سابقاً أنه لابد أولاً من معرفة معاني حروف المباني توصلاً لمعرفة معاني حروف المعاني وأصول استعمالها . ولكن أين نعثر على معانيها ؟ .

ما أحسب أن عالم لغة عربية إلا وقد عمل على تحديد معاني بعض الحروف العربية ووظائفها في سياق أبحاثه اللغوية ، ولا سيما الصرفي والنحوي منها ، وبصورة خاصة ما يتعلق منها بحروف المعاني .

ولكن هل يصح لنا الركون إلى ما توصلوا إليه ، ولما يقل أحد منهم بانتماء الحروف العربية إلى المراحل الغابية والزراعية والرعوية ، ولم يتطرق إلى خصائصها الايمائية ؟ . مما يؤكد استحالة اهتدائهم إلى حقيقة معانيها جميعاً ، ولئن أصابوا في تحديد معاني بعضها باعتمادهم خصائصها الايحائية ، إلا أنه قد فاتهم ما يتعلق بالايمائي من خصائصها . وهكذا كان لابد لي من اتباع نهج خاص في هذا الصدد يراعي مسألة الايمائي والايحائي معاً في أصوات الحروف العربية ، ومسألة انتمائها إلى المراحل الحياتية الثلاث .

ويستحسن بنا أن نجري أولاً مقارنة سريعة بين نهج بعضهم ونهجي في استخلاص معاني حروف المباني .

## ثانيا : علماء اللغة العربية بين النصوص ومعاني الحروف :

تنطلق هذه الدراسة من مقولة (فطرية اللغة العربية) كما أسلفنا سابقاً . بمعنى أن أصولها ضاربة في أعماق التاريخ قد اقتبست مباشرة من الطبيعة ، وليست مجرد مصطلحات عقلية قد تواضع الناس على معاني ألفاظها . فقد استقر رأي علماء اللغة العربية القائلين بفطرتها ، على أن معنى كل كلمة عربية هو بالضرورة محصلة معاني الحروف التي تشارك في تركيبها .

ولقد حاول (ابن جني) ، وهو من أقدم القائلين بفطرية اللغة العربية أن يستخلص معاني بعض الحروف بالرجوع إلى معاني الكلمات التي تشارك في تراكيبها . فاستهدى تارة بقاعدته الذكية : ((لا ينكر تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)) . واستهدى تارة أخرى بقاعدته الأذكى : ((حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث)) . كما حاول

(العلايلي) وهو من أحدث القائلين بها أن يحدد معاني الحروف العربية : ((بما تسمح به النصوص)) .

ولئن أصابوا جميعاً في تحديد معاني بعض الحروف ، إلا أنهم قد أخطأوا في تحديد معاني بعضها الآخر .

ويقول ابن جني : (الحاء) فيه رقة ، وفي (الخاء) غلظة . فقيل (نضح) للماء القليل ، و (نضخ) للماء الكثير . ثم يقول : (القاف) فيه صلابة ، وفي (الخاء) رخاوة . فقيل (قضم) لليابس ، و (خضم) للرطب . وبذلك يكون ابن جني قد أسند لحرف (الخاء) خاصيتين لاتخلوان من التعارض .

وقد لاحظ الارسوزي العلاقة بين معاني التخريب في المصادر التي تبدأ (بالخاء) وبين ظاهرة التخريب في صوتها ، كما في : (خرَّ خريراً / خرب / خرس / خرم / خرق ...) فأسند هذه الخاصية الصوتية (للخاء) . وكان هذا الاكتشاف فاتحة اهتمامه باللغة العربية بمعرض البرهان على فطرتها .

أما العلايلي فقد قال عن (الخاء) بأنها : ((للمطاوعة والانتشار والتلاشي)) .

وهكذا لم يهتد أحد من علماء اللغة العربية إلى مختلف معاني (الخاء) ، لأنهم لم يتبعوا نهج الانسان العربي في إبداع كلماته تعبيراً عن معانيه بما يتوافق مع صدى أصوات حروفها في النفس . فالانسان العربي ، تأثرا منه بخصائص الخنخنة الكريهة والرخاوة والتخريب في صدى صوت (الخاء) في النفس ، قد جعلها في مقدمة المصادر التي تدل معانيها على أمراض وعيوب نفسية وأخلاقية وجسدية وعلى القذارة والبشاعة والفحش ، وما إليها من الرخاوة والتخريب والتفاهة والاضطراب ، بما نسبتها (80) في المئة . كما كان ثمة (13) مصدراً تدل معانيها على ما يفيد الرقة والصفاء والبضاضة ، بما يتوافق مع صوت (الخاء) مخففاً مرققاً ، منعماً ، بنسبة (5) في المئة فقط . وهذا ما يجيز لنا القول بأن (الخاء) هي سلة النفايات التي وضعها الانسان العربي في بنيان لغته الشامخ الأنيق . ولو أنهم استكشفوا خصائص صوت (الخاء) ابتداء لعثروا على حقيقة معانيها بالرجوع إلى المعاجم والنصوص . ولهذا السبب قد ابتعد العلايلي كثيراً عن حقيقة معاني معظم الحروف العربية في كتابه (تهذيب مقدمة اللغة) .

## ثالثا : اعتماد خصائص الحروف العربية لمعرفة معانيها :

إن فطرية اللغة العربية تحتم وجود رابطة أصيلة بين خصائص الحروف العربية وبين معانيها . ولذلك فإن خصائصها الايمائية والايحائية هي بداهة أصول معانيها ، وليس العكس . فبدل أن ألجأ إلى النصوص لمعرفة خصائص الحروف ومعانيها كما فعل غيري ، قد بدأت بالتحري عن خصائصها أولاً ثم التحقق من توافق هذه الخصائص مع معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها ، متبعاً في ذلك النهج التالي :

أ – ألفظ صوت الحرف منفردا بشيء من التفخيم . وذلك لتضخيم الحركات الايمائية التي يمكن أن ترافقه ، عودة بها إلى مراحلها البكر ، قبل أن يتناولها الانسان العربي بالتهذيب والتلطيف في مرحلة شاعرية لاحقة . ثم أتأمل طريقة النطق بصوته بحثاً عن خصائصه الايمائية .

ب – ثم أتأمل صدى صوته المفخم في النفس ، بحثاً عن خصائصه الايحائية الأصلية قبل مرحلة التهذيب والتلطيف .

ج – وأخيراً ، ألجأ إلى أحد المعاجم اللغوية . فإذا كان الحرف (ذكوريا) ، في صوته قوة أو

صلابة أو شدة أو غلظة أو فعالية أو حدة ، وما إليها أكتفي في معظم الأحيان باستخراج أصول معاني جميع المصادر الجذور التي تبدأ به بحثاً عن التوافق بينها وبين خصائصه الايمائية والايحائية . وأقصد بالمصادر الجذور ما هو غير دخيل ولا معرب ولا مولد ولا محدث ، ولا ما يدل معناه على نبات أو حشرة أو حيوان أو جماد لا اشتقاق له . كما أقصد بأصول المعاني ، الحسي منها لا المعنوي ، مما هو ألصق بالطبيعة أصل نشأتها ونشأة حروفها . وذلك للكشف عن الرابطة الأصيلة بين خصائص الحروف ومعانيه .

أما إذا كان الحرف (أنثويا) ، في صوته رقة أو أناقة أو نعومة أو دماثة ، فألجأ إلى المصادر الجذور التي تنتهي به أيضا . وقليلاً ما ألجأ إلى المصادر التي يتوسطها . فالحروف الأخرى تزاحمه في مواقع قوتها على معاني المصادر ولا يبقى له منها إلا القليل . وذلك على العكس مما يدعيه بعض علماء اللغة من أن الحرف الوسط هو أقوى الحروف في الكلمة ، بدليل قابليته للتضعيف كما في (قسّم) بتشديد (السين) . وفاتهم أنها قوة مصطنعة ، فالفعالية الحقيقية في معنى هذه الكلمة هي لحرف (القاف) وليس لحرف (السين) .

وشأن الانسان العربي مع حروفه في لغته ، كشأنه مع الذكورة والأنوثة في مجتمعه . فالرجل البدوي كان أوحى بخصائص الذكورة عندما يتصدر الصفوف ، بمقابل ما كانت المرأة البدوية أوحى بخصائصها الأنثوية عندما تستكين في المضارب الخلفيّة . وذلك لأن أصوات الرجال والنساء والحروف يجهر بها ويشد عليها عندما تتصدر الصفوف والحروف ، وتلفظ مخففة مرققة منعمة ، في مؤخرة الصفوف والحروف . مما يجعلها محكومة بقاعدة (وضع المناسب في المكان المناسب) . ما شذّ عن هذا النهج العربي الرعوي عبر التاريخ إلاّ قلّة من الرجال والنساء والحروف أيضاً ، ممن تمتعوا بشخصيات قوية .

وبتطبيق هذا المنهج على الحروف العربية جميعاً في المعجم الوسيط ، تبين لنا أن هناك حروفاً قوية الشخصية قد طبعت بخصائصها الايمائية والايحائية معاني المصادر التي تبدأ أو تنتهي بها بنسب راوحت بين (60 / 90) في المئة . كما كان إلى جانبها حروف متوسطة الشدة قد اقتصر تأثير خصائصها في معاني المصادر على نسب راوحت بين (50 / 60) في المئة . واقتصر تأثير خصائص حرف (التاء) في معاني المصادر التي تبدأ بها على (29) في المئة وحرف (الحاء) على (22) في المئة . فكانا بذلك أضعف الحروف شخصية .

أما الهمزة المزمارية والحروف الجوفية الثلاثة ، فلم ألحظ أن ثمة رابطة واضحة بين خصائصها وبين معاني المصادر التي تشارك في تراكيبها . فهل يجيز لنا ذلك أن نحكم بأنها معدومة الشخصية ، وأنها بلا معان ؟ سنرى .